شعرية الاقتصاد الأدائي في الدّرس النقدي العربي القديم

الأستاذ الدكتور محمد زيوش
جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف- (الجزائر)
Ziou_moha@yahoo.fr

الملخص:

أصبح مصطلح الاقتصاد الأدائي من المصطلحات العلمية التي شاع استخدامها في اللّسانيات الحديثة ، وتقصد به تحديد طبيعة الاستخدام الكمي للألفاظ داخل لغة النص ومنها امتدّ استعماله إلى الشّعرية الحديثة، والتي استنتجت أنّ هذا الاستخدام الكميّ الأمثل للعلامات في حدّه الأدنى يسهم – وبشكل فعال– في تفجير مدلولات تفوق القدرة المعجمية لتلك العلامات، حيث يتحوّل الاقتصاد الأدائي من مجال النّمو الكميّ للنّسق اللّغوي إلى فاعلية كيفية يتجاوز فيها النّسق اللّغوي الارتباطات الذهنية الثابتة بين الدوال والمدلولات، فتصبح اللّغة الشّعرية ناقلة للشّعرية الكامنة بالقوة في الدوال إلى ذاكرة المتلقي الذي يصبو للوصول إلى الحقيقة الشّعرية عن طريق المدلولات بلغة تمتاز بالكثافة، والإيجاز... ولغة لا تفسّر لكنها تومئ، بلغة لا تسمي الأشياء بل تخلق جوّها حتى تصنع من النّص شعلة متوهجة الدلالة.

ستسعى هذه المقالة إلى الكشف عن الجهود المبكرة للنّقاد العرب القدامى أثناء محاولاتهم محاصرة شعرية النصّ، وفي أحد جوانبها من خلال الاقتصاد الأدائي، حيث يتجلى المدى الذي وصلته شعريته في مدى قدرة النّص، وقابليته على التأثير والتأثر، وهو ما التفت إليه علماء الشّعرية العربية القدامى.

الكلمات المفتاحية: الاقتصاد الأدائي–الشّعرية العربية القديمة– الإيجاز– النقد العربي القديم.

Abstract :

The term (Performance Economics) has become used in modern linguistics, it is intended to determine the nature of the quantitative use of words within the language of the text. It has been extended to modern poeticism which concluded that this optimal quantitative use of the words is minimal contributes effectively to the explosion of meanings beyond the lexical capacity of those words where the performance economy is transformed from the quantitative growth of language format to the effectiveness of how,and the linguistic pattern exceeds the fixed mental links between Signified and Signifier, and a poetic language becomes the vector of poetic power inherent in functions, to the memory of the recipient who aspires to reach the poetic truth by means of connotations, in a language characterized by intensity and conciseness ... and a language that is not interpreted, but uttered, in a language that does not name things but creates its atmosphere; and make from the text a glowing flame of Significance

This article will seek to reveal the early efforts of the old Arab critics in their attempts to encircle the poetry of the text, and in one aspect of it through the performance economy, where the extent of its poetry is reflected in the extent of the ability of the text and its ability to influence and influence

key words:
The Performance Economy – Ancient Arabic Poeticism – Brief – Ancient Arab Criticism.

كان مدار الحديث في شعريات العالم عن اللّغة الشّعرية، ، وحول خصوصية هذه اللّغة، مقارنة بالكلام العادي، وما لوسائلها من قدرة على تحويل الألفاظ الموجودة كمواد أولية، وتنسيقها، وتنظيمها، بطريقة تخرجها مركبة تركيبا مخالفا لعاديتها، فتجعل منها بتواشجها مع غيرها، شعرية متميّزة، فيصبو النّص بها إلى الوقوع في أواصر الانتساب إلى الأدب، بما هو اختيار واع لأدوات التعبير.

وتعتبر جهود النّقاد في هذا الميدان، قديمة جدّا، تعود جذورها إلى كتابات أرسطو، الذي يعزى له الفضل في بداية الجهد المنظم في تحليل الأسلوب، وهي جهود تلتقي بالدراسات الحديثة في أبعاد كثيرة، عند محاولتها محاصرة الشّعرية، والكشف عمّا يميّز اللّغة في الاستعمال الأدبي عن غيره من الاستعمالات، فانصب الاهتمام على الأسلوب الأدبي باعتباره انحرافا عن نمطية اللغة المعيارية.

وقد تفطّن الشّاعر العربي قبل الشّعري، لهذه الخاصية التي تمتلكها اللّغة، فاستغلّ وسائلها في إطار الحدود التي رسمتها الشّعرية العربية وقيّدت الشعّراء بها لحظة التّأسيس، فكان أن رسم الشّعري العربيّ حدود الانزياح، والغموض، وحدّد مَكْمَنَ شعريتهما، ومكمن جمالية الاستعمال، وكشف جماليات الإيجاز، والتكرار النغمي، وقدرة الشّاعر على تطويع اللّغة لتشكيل العالم من جديد، والتّعبير عن رؤاه، وإذا كنّا في هذا المقام سنقف على خاصية الإيجاز وما لوسائله من قدرة على شعرنة الكلام فلأنّ اللّسانيات الحديثة أصبحت تعدّ الاقتصاد الأدائي من المصطلحات العلمية التي شاع استخدامها، ويقصد به، تحديد طبيعة الاستخدام الكمي للألفاظ داخل لغة النص[1]، ولما كان الاقتصاد لغةً، هو صفة محمودة واقعة بين رذيلتين: الإسراف والتقتير، كان منطقيا أن تقول الشّعرية الحديثة بأن الاقتصاد الأدائي هو: "**الاستخدام الكمي الأمثل للعلامات في حدّه الأدنى، لتفجير مدلولات تفوق القدرة المعجمية لتلك العلامات**"[2]، وبهذا التحديد، يتحوّل الاقتصاد الأدائي في مفهوم الشعرية الحديثة، من مجال النّمو الكميّ للنسق اللّغوي، إلى فاعلية كيفية، يتجاوز فيها النّسق اللّغوي الارتباطات الذهنية الثابتة بين الدوال والمدلولات،[3] وهذا يدحض الفكرة القائلة بأنّ: "**فكرة الاقتصاد اللّغوي، كقانون وهدف للإبداع، قد تكون صالحة في حالة واحدة من حالات اللّغة، وأعني في اللغة اليومية**."[4]

ولأنّ الأشياء لا تكون شاعرية إلا بالقوة، ومهمة اللّغة باعتبارها أداة توصيل هي نقل هذه الشّاعرية، اعتمادا على وسائل الاقتصاد من القوة إلى الفعل، مثلها مثل اللّغة الإبلاغية، والتي تكون مهمتها توصيل الحقيقة المرجعية بأقصر الطرق الممكنة، وبهذا تكون اللّغة الشّعرية ناقلة للشّاعرية الكامنة بالقوة في الدوال إلى ذاكرة المتلقي الذي يصبو للوصول إلى الحقيقة الشّعرية عن طريق المدلولات، بلغة تمتاز بالكثافة، والإيجاز... ولغة لا تفسّر، لكنها تومئ، بلغة لا تسمي الأشياء، بل تخلق جوّها؛ حتى تصنع من نص شعلة متوهجة الدلالة، فقيمة: "**الأسلوب تكمن في قدرته على احتواء أقصى قدر ممكن من الفكر، في أقل عدد ممكن من الكلمات**."[5]

وهو ما تفطن إليه الشّعراء والنقاد العرب على السواء منذ العصر الجاهلي، فجعلوا الكلام الذي سلك فيه صاحبه مسلك الاقتصاد كلاما شعريا، ومن يتتبع، ويحصي النصوص الأدبية المأثورة، وآراء النقاد، والبلاغين العرب فيما حفظته لهم المصادر التاريخية، يجدهم يؤكدون جميعا بأنّ الإيجاز غير المخلّ، والمصيب للمعنى قمّة البلاغة، والغاية التي لا يرتقي إليها إلا الندرة من فرسانها، الذين يسبقون، ولا يصلون، فقالوا: "**البلاغة لُمْحَةٌ دالَّةٌ**"[6]، أو هي: "**إصابة المعنى وحسن الإيجاز**"[7] أو: "**إجاعة اللفظ وإشباع المعنى**"[8]، وأنّ أبلغ الناس: "**من حليّ المعنى المزيز باللفظ الوجيز، وطبق المفصل قبل التحزيز**"[9]، ووصفوا الذي يصيب المعنى بكلام موجز بقولهم: "**فلان يَفُلُّ المحزَّ ويصيب المُفْصِل.** "[10]

ويتبيّن لنا من خلال هذه التعريفات، أنّ نقادنا القدامى لم يقصدوا بالإيجاز كثرة المعنى مع قلة اللّفظ، أو الاختصار فقط، وإنما المراد من وراء الإيجاز، الوصول إلى غاية البلاغة، وتحقيق الغاية مَرْهُونٌ: "**بما يستحسن فهو إيجاز لخفته على النفس**"[11]، لأنّه متى كان الكلام موجزا دون إخلال، ومؤديا للغرض، وموصّلا للمعنى بأقصر عبارة، كان أدعى للمحافظة على نشاط النفس المتلقية خلال المتابعة، وإبعاد السأم والملل عنها، ومن هذه الزاوية يمكن محاصرة شعرية الاقتصاد الأدائي، حيث يتجلى المدى الذي وصلته شعريته في مدى قدرة النّص، وقابليته على التأثير والتأثر، وهو ما التفت إليه علماء الشّعرية العربية القدامى.

فتحدث أبو هلال العسكري على سبيل المثال لا الحصر، عن الأساس النّفسي الكامن وراء قدرة محافظة الكلام الموجز على نشاط المتلقي، فقال إنّ: "**للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال، وصار سببًا للملال، فذلك هو الهذر، والإسهاب، والخطل، وهو معيب عند كل لبيب**"[12]، لهذا عدَّ أَحسن الكلام: "**ما كان قليله يغنيك عن كثيره**"[13]، ففي الاقتصاد حماية للكلام من الابتذال[14]، وهذا نفسه، ما جعل الجاحظ يحتفي بالكلام: "**الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه, فقد يكون القليل من اللفظ يأتي على العديد من المعاني**"[15] فالكلام الذي تنكَّب فيه صاحبه الفضول فيه بلاغة، وفيض من الدلالة[16]، لأنّ العرف حدّد: "**أنّ كل كلام لا فضول فيه إيجاز. وأجلى ما يبدو فيه هذا الفهم، ما روي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في مدح الإيجاز بقوله "إنّ الله يكره الانبعاق في الكلام، فنضّر الله وجه رجل أوجز في كلامه، واقتصر على حاجته**"[17]، ولما كانت وظيفة الكلام بصفة عامة هي الإبلاغ والإخبار، كان الإيجاز في عرف نقادنا أولا، هو الاقتصار على ما يفي بحاجة المرء من الألفاظ، بغض النظر عن حجم الألفاظ التي تستدعيها الحاجة، ففي: "**أساس كل القواعد التي تعين اختيار واستعمال الكلمات، نجد نفس الضرورة الأساسية: اقتصاد الإصغاء.. إن إيصال الفكر إلى المفهوم المراد، بواسطة الطريق السهل، هو دائما الهدف الوحيد، والرّئيسيّ.**"[18]

لكن نقادنا القدامى أدركوا حقيقة أخرى، هي أن الكلام الشّعري غير الكلام العادي، وبالتالي فإنّ وسائل، وغايات الكلام الشّعري ليست هي نفسها غايات، وأهداف الكلام العادي، وإذا كانت الوظيفة الإبلاغية لصيقة الوعي النقدي العربي، متحلّقة به، فإن الوظيفة الشّعرية، التي هدفها هزّ المتلقي عن طريق إلذاذه، لها وسائلها في

الاقتصاد الأدائي، حيث اللّغة جهدٌ، الغرض منه تحسين كفاءة الوسائل اللّغوية، وليس التقليل من الجهد الفيزيقي والذهني اللازمين لإنتاج الكلام –حسب شرح **بوهلر**–[19]، ومؤدى هذا أنّ المحتوى في اللّغة الشّعرية: "**ليس مما يفوق التعبير، ما دام الشعر نفسه قد عبر عنه، ولكن الحقيقة أنه يستعصي على النثر، لأنه يتجاوز العالم التصوري الذي تحدد فيه اللغة المعنى.**"[20]، وبناء عليه يمكن القول **بأنّ** الشّعر: "**ليس لغة جميلة، لكنه لغة كان لابد أن يخلقها الشاعر، ليقول ما لم يكن من الممكن أن يقوله بطريقة أخرى.**"[21]

وهو ما يدفعنا إلى القول بأنّ الاقتصاد الأدائي في اللّغة الشّعرية يعتمد على تكثيف اللغة لتعطي مجالاً أوسع من الأفكار والمعاني، فيُمَكِّنُ اللّغة من التّطور، كما يسمح للمبدع من مراوغة اللّغة، والانزياح عن قوانينها المعيارية التي تحاول دوما ضبط الخروج عن المألوف والمعتاد من المتداول، وبالتالي يسهم – وفي أحد جوانبه– في حماية الكلام من الابتذال، لأنّ دلالته تتعدى: "**الدقة في التوفيق بين الألفاظ**"[22]، أو مجرد التماسك بين أجزاء الكلام، إلى فيض الدّلالة حيث تتعدّد المعاني وتختلف، لذلك عدّ الجاحظ الإيجاز دليل على عبقرية المبدع، لأنّ فيه تتأتّى الكثافة التي تجعل من الكلام إيحاءً، وهو الكلام التي كانت تمتدحه العرب[23]، أليس هو نفسه ما ذهب إليه هوراس، حين تأكيده على أنَّ الكلام البليغ هو الكلام الذي تتعدّد فيه الدّلالات المستترة حتّى تحتاج في إيضاحها إلى ألفاظ جديدة، لم تكتب في النص[24]، وبذلك تترك مجالا تأويليا للمتلقي، فيصبح طرفا في إثراء النّص دلاليا.

ولعلّ هذا ما جعل شعريينا القدامى يقولون بأنّ الإيجاز هو طبع وسجية، وتدريب، وممارسة، فالكلام إذا طال: "**عرضت [للمتكلم] أسباب التكلف، ولا خير في شيء يأتيك به التكلف**"[25]، وبما أنّ الإيجاز من حيث علاقة النص بالمتلقي دعوة لمشاركة المتلقي في إنتاج الدلالة، والكشف عنها بحسب فهم شعريينا القدامى، كان أن عُدَّ الإيجاز مقياسا للجودة الفنية، لما يتركه من ظلال خفية على أطرف المعاني: "**يشتغل بها الذهن، ويعمل فيها الخيال، حتى تبرز، وتتلون، وتتسع، فتزيد بطريق الإيحاء من دلالة الكلام**"[26]، والإيجاز طبيعة متأصلة في اللّغة العربية، وليس وسيلة فقط، وذلك بحكم أنّ طبيعة اللّغة العربية طبيعة شعرية، و: "**الكلمة لا تحمل معها فقط معناها المعجمي بل هالة من المترادفات والمتجانسات، والكلمات لا تكتفي بأن يكون لها معنى فقط، بل تثير معاني كلمات تتصل فيها بالصوت أو بالمعنى أو بالاشتقاق، أو حتى كلمات تعارضها أو تنفيها.**"[27]

ولعل هذا دافع قوي، أدى بالعلماء إلى تناول قضية الاقتصاد الأدائي قصد استجلاء غوامض النّص القرآني، بهدف الكشف عن خصوصيته، التي تنبع من خصوصية التّعبير العربي، فاعتمدوا في دراساتهم للاقتصاد الأدائي، على مبدإ التقابل بين اللّغة في استعمالها الشّعري، واللّغة في استعمالها المعجز، وهو المعيار نفسه الذي تذهب إليه الأسلوبيات الحديثة، يقول **انكسفت** في نظريته في علم اللغة الأسلوبي، عند: "**تحديد سمات النص ومثيراته ينبغي مقارنته بطائفة من النصوص الأخرى، التي تشكل المعيار الذي نقارن على أساسه، وهو معيار انتخابي أو اختياري؛ لأنّ النص المدروس هو الذي يختاره ليكون خلفاً له. ويُعنى في هذه المقارنة بتحديد**

السمات اللغوية التي تخالف بين النص المدروس والمعيار، ومن حصيلة السمات المهمة التي تميز النص عن المعيار ينتج لدينا ما يسمى بمحددات الأسلوب في النص في علاقته بالمعيار المستخدم. ويؤثر تغيير المعيار في عملية حصر هذه المحددات."[28]

ولما كان الإيجاز خاصية من خواص الأسلوب في القرآن الكريم، قال الجاحظ بأنّ له كتاباً جمع فيه آياً من القرآن: "**تعرف بها فصل ما بين الإيجاز والحذف، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة... فمنها قوله حين وصف خمر أهل الجنة: ﴿لا يصدّعون عنها ولا ينزفون﴾**[29] **وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا."**[30]

ويُعَدُّ أبو عبيدة من الأوائل، الذين تعرضوا لهذه الظاهرة بالدرس في كتابه مجاز القرآن، حيث أشار في مواطن متعدّدة من كتابه، إلى مظاهر الاقتصاد اللّغوي[31]، على الرغم من صعوبة المبحث لأنه: "**غاية في الدّقة، ويتطلب حساً لغوياً مدرباً، ولطفاً عاليّاً في الذوق الأدبي يضاف إليه معرفة نادرة بالظروف الفيلولوجية للغة"**[32]، كما حرص على الاعتناء بهذه الجوانب، التي تكشف عن حُسْنِ تَبَصُّرٍ وتَذَوُّقٍ، وعن قدرة على التحليل، والتعليل بالإبانة عن خصائص الأسلوب القرآني، والذي هو من جنس أسلوب العرب في كلامهم.

وقف أبو عبيدة عند الآية الكريمة، التي يقول فيها الله تعالى: **﴿ويَتَفَكرون في خَلْق السموات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً﴾**[33]، فقال: "**العرب تختصر الكلام ليخففوه لعلم المستمع بتمامه، فكأنه في تمام القول ويقولون ربنا ما خلقت هذا باطلا"**[34]، وإذا كان ظاهرُ المبدإ هو الجهد القليل الذي تميّزه السهولة، بغرض الاقتصاد في اللّفظ، فإن الناقد قد أشار إلى شيء مهم، وهو كثافة الدلالة، وتوسعها الناتج عن التطور الدلالي الذي يعزى إلى اقتران اللّغة بالسياقات الجديدة، وهو نفسه ما ذهب إليه **جاسبرسن O. Jespersen**، حين استنتج أن التّطور اللّغوي يتم دائما باتجاه التبسيط، فتصل به: "**اللغة عبر مراحل متعددة، إلى حال تكون لها فيها أقصى فعالية عبر أدنى مجهود."**[35]

ووسّع أبو عبيدة هذا المبحث بالأمثلة التي لها صلة بالاقتصاد الأدائي، كالآية الكريمة: **﴿فأمّا الذين اسودَّت وُجُوههم أكفرْتُمْ بَعْدَ إيمانكم﴾**[36]، التي يقول عنها العرب: "**تختصر لعلم المخاطب بما أريد به، فكأنه خرج مخرج قولك: فأمّا الذين كفروا فيقول لهم: أكفرتم، فحذف هذا واختصر الكلام، وقال الأسدي:**

كذبتم وبيت الله لا تنكحونها ** بني شاب قرناها تّصُرّ وتحلبُ**

أراد بني التي شاب قرناها. وقال النابغة:

كأنكَ من جمال بني أقيش ** يُقعْقع خلْفَ رجْليه بشنّ**

بني أقيش حي من الجن، أراد: كأنك جمل يقعقع خلف الجمل بشن، فألقى الجمل، ففهم عنه ما أراد"[37]، وقد حاول أبو عبيدة الالتزام بمنهجه، وخلال استقصائه لظواهر الاقتصاد الأدائي في القرآن، عن طريق قراءته بالمماثلة، في محاولته تأكيد هذه الظاهرة، على أنها خاصة باللسان العربي، وليس بالقرآن فقط، لأن

الاقتصاد الأدائي مرتبط في أحد جوانبه بالمتلقي، الذي يكون عالما بالرسالة، أو بجزء منها حتى يتسنى له كشف الرسالة، وإدراك ما لحق باللغة من خروج عن المعيارية إلى مستوى استعمالي جديد لم يعهده، فيه تَفَنُّنٌ أسلوبيٌّ هدفه تسهيل الخطاب، وتيسيره على المتلقي.

ومن الوعي ذاته، اعتبر المبرّد، الاختصار علامة على جودة الشّعر، وأورد بيتا للأعشى يقول فيه:

وتبرد رداء العرو*س بالصيف رقرقت فيه العبيرا**

وتسخن ليلة لا تستطي*ع أن ينبح الكلب إلا هريرا.**

وفضّل عليه قول طرفة :

يطّرد البرد بحر ساخن*وعليك القيظ إن جاد بقّر.**

واعتبره أجود: "**لأن الأعشى أطال. أما كلام طرفة فقال عنه إنه أجمع وأخصر.**"[38]، وبما أنّ حقّ اللّفظ أن يحيط بالمعنى، كان الواجب حذف الفضول من الكلام الشّعري، حيث تصبح الدلالة مكثفة بقليل من اللّفظ، حتى يغدو النسيج اللّغوي لا هو طويل ولا هو قصير، كما في قول امرئ القيس:

سماحة ذا وبرَّ ذا ووفاء ذا*ونائل إذا صحا وإذا سَكِرْ**

حيث عبّر فيه عن المعنى في بيت واحد عكس عنترة، فكانت ألفاظه قليلة، أظهر فيها قدرته على حذف الفضول، مما جعل البيت أكثر شعرية من قول عنترة الذي أتى بالمعنى في بيتين على الرغم من حسنهما[39]:

فإذا شربتُ فإنني مُستَّهلـــــكٌ * مالي وعِرضي وَافرٌ لمْ يُكّلم**

وإذا صحوتُ فما أقصِّر عن ندًى * وكما علمتِ شمائلي وتكرُّمي**

ويعدّ ابن قتيبة من أبرز النقاد، الذين حاولوا مقاربة مفهوم الاقتصاد الأدائي في القرآن، وتبيان وجه الإعجاز فيه، حيث اعتبر الإيجاز بنوعيه (**الحذف، والقصر**) مقوّما من مقومات الانزياح الأسلوبي عن المعنى الأصلي، إلى ردفه وتاليه؛ ففي بداية كتابه يذكر إيجاز القصر بقوله: "**وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه، وذلك معنى قول رسول الله– صلى الله عليه وسلم– : «أوتيت جوامع الكلم» فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه: ﴿خُذِ العَفْوَ وَأمُرْ بالعُرْفِ وَأعْرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ﴾[40] كيف جمع له بهذا الكلام كل خُلق عظيم؛ لأن في (أخذ العفو) صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين وإعطاء المانعين. وفي (الأمر بالعرف) تقوى الله، وصلة الأرحام، وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن الحرمات... وفي (الإعراض عن الجاهلين): الصبر والحلم، وتنزيه النفس عن مماراة السّفيه، ومنازعة اللّجوج.**"[41]

ويتأكد لنا من شرح ابن قتيبة، أنّ المبدأ السائد في إيجاز القصر، هو مبدأ التضييق في اللّفظ بغرض تكثيف الدّلالة حتى تتمكّن ألفاظها من نقل المتخيّل إلى المتلقي بكل إيحاءاته ودلالاته، لأنّ في هذه الحال يكون المعنى مغطّى نتيجة تعدّد الاستعمال، وهذا ما يكسب اللّغة طواعية وليونة في التّعبير عنه، وقد بحث **فندريس** –وهو من لسانيين المعاصرين– عن أسباب تغيّر المعنى، فأرجعها إلى ثلاثة أنواع: "**التضييق والاتساع والانتقال. فهناك تضييق عند الخروج من معنى عام إلى معنى خاص... وهناك اتساع في الحالة العكسية أي عند الخروج من**

معنى خاص إلى معنى عام... وهناك انتقال عندما يتعادل المعنيان أو إذا كانا لا يختلفان من جهة العموم والخصوص.."[42]

ولما كان الاتساع، والتضييق حالتين دلاليتين ناتجتين عن انتقال الدلالة من الخاص إلى العام، ومن العام إلى الخاص، نتيجة توظيف المحسنات سواء اللغوية أو الفكرية من جهة، ومن جهة أخرى نتيجة عوامل خارجة عن اللّغة، ولقد وقف ابن قتيبة عند هذه القضية، بغرض الكشف عن دور القرآن في تطوير الاستعمالات اللّغوية العربية، من خلال استثماره لتلك الانزياحات، وتوظيفها أحسن توظيف حتى غدت معجزة، مستعينا في ذلك بعدّة أمثلة أوردها، كان الغرض منها كشف ما أصاب اللّغة من تطوّر نتيجة اتصالها بالقرآن، يقول: "**وقد قال قوم بقصور العلم وسوء النظر في قوله تعالى: ﴿وتَرَى الشَّمسَ إذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ، وَإذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾**[43] **وما في هذا الكلام من الفائدة؟ وما في الشمس إذا مالت بالغداة والعشيّ من الخبر؟. ونحن نقول: وأي شيء أولى بأن يكون فائدة من هذا الخبر؟ وأي معنى ألطف مما أودع الله هذا الكلام؟. وإنما أراد عزّ وجلّ: أن يعرّفنا لطفه للفتية، وحفظه إياهم في المهجع، واختياره لهم أصلح المواضع للرقود، فأعلمنا أنه بوّأهم كهفاً في مقنأة الجبل، مستقبلاً بنات نعش، فالشمس تزورّ عنه وتستدبره: طالعة وجارية وغاربة. ولا تدخل عليهم فتؤذيَهم بحرّها وتلفحهم بسمومها، وتغيّر ألوانهم، وتُبلي ثيابهم. وأنهم كانوا في فجوة من الكهف . أي متسع منه . ينالهم فيه نسيم الريح وبردها، وينفي عنهم غمّة الغار وكربه. وليس جهلهم بما في هذه الآية من لطيف المعنى."**[44]

ولعل الوقوف عند هذه الآية له ما يُبرره، لأنّ النّص القرآني في كثير من موقع، فصّل في الأخبار ولم يوجز لعلّة عدم إحاطة المتلقي بالرسالة من قبل، وهذا ما أدركه دارسو الإعجاز القرآني، الذين فَصَلُوا بين الإطناب والتطويل، مثل الرّماني، والذي اعتبر التطويل بأنّه: "**عيب وعيّ**"[45]؛ لما فيه من تكلّف، وتكثير للألفاظ، والتي يكفي عن الدلالة فيها القليل منها بعكس الإطناب الذي هو بخلاف ذلك: "**لأنّه كمن سلكَ طريقا بعيدًا لما فيه من النُّزهة والفوائد العظيمة فيحصل في الطريق إلى غرضه من الفائدة على نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب.**"[46]

ووازن ابن قتيبة –لأجل ردِّ طعن الطاعنين– بين النّص القرآني، والنّص الشّعري في الوقوف على الأطلال، من خلال موازنته بين الآية الخامسة والعشرين من سورة الأحقاف، التي يقول الله تعالى فيها: ﴿**فأصْبَحُوا لا يُرى إلاَّ مَسَاكِنُهُم**﴾ وبين نص شعري للأسود بن يعفر، يقف فيه على الأطلال، وكانت الموازنة لغرض كشف شعرية الإيجاز في النّص القرآني، فقال: "**وهذه الشعراء تبكي الديار، وتصف الآثار، وإنما تسمعهم يذكرون دمنا وأوتاداً، فكيف لم يعجبوا من تذكُّرهم أهل الديار بمثل هذه الآثار، وعجبوا من ذكر الله، سبحانه، أحسن ما يذكر منها وأولاه بالصفة، وأبلغه في الموعظة؟**"[47]، ووصل إلى نتيجة مفادها، أن القرآن معجز بإيجازه، الذي تجاوز به إيجاز العرب في كلامها على الرغم من أنّه استعمل طريقة العرب في الإيجاز.

أما في ما يخص إيجاز الحذف، والاختصار، فقد حاول ابن قتيبة من خلال القراءة بالمماثلة، أن يثبت إعجاز

القران من هذه الناحية، من خلال شعرية هذا النوع من الإيجاز، مبيّنا أنواعا عدّة منه ك: حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، فيقول: **"من ذلك أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له، كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الّتي كُنَّا فِيها﴾[48] أي سل أهلها"**[49]. وإذا كانت اللّسانيات النّظرية تؤكّد على ضرورة ذكر أطراف الإسناد حتى لا تتشتت الدلالة، فإن التطبيق العملي يعمل بعكس ذلك، فأثناء الكلام نسقط أحدهما اعتماداً على دلالة القرائن المقامية، أو الحالية لأنّ: **"الأساس العام لمفهوم الحذف ينطلق من الأداء بحيث يكون العدول عنه إفساداً له"**[50]، ولهذا عدّه جلّ الإعجازيين خاصية جمالية في النص القرآني، لما فيه من اقتصاد في اللّفظ، وتوسيع في الدلالة، ويؤكد ابن قتيبة في كل مرّة، أن هذا الأسلوب من خصائص اللغة العربية، مُطَعِّمًا قوله بأمثلة من الشّعر العربي، متوسعا في سياقات الحذف، مع ذكر أمثلة كثيرة لمواطن الحذف في القرآن الكريم، والشعر العربي، منها إيقاع الفعل على شيئين، وهو لأحدهما كقول الشاعر:

"تَراهُ كأنَّ اللهَ يَجْدَعُ أنْفهُ*وَعَيْنَيْه إنْ مَوْلاهُ ثابَ لهُ وَفْر**

أي يجدع أنفه، ويفقأ عينيه." [51]

ويبيّن ابن قتيبة، أن السياق هو الذي يدل على المقصود من المحذوف، لعلم المتكلم بحال الخطاب، ومتلقيه لضمان النجاعة، جراء الحذف: **"ذلك أن الإنسان إذا وثق من أن محدثه قادر على فهمه أعفى نفسه من استعمال اللفظ الدقيق المحدد واكتفى بالتقريب العام"**[52]، وهو نفسه ما سيؤكده الكثير من دارسي الإعجاز القرآني، أو دارسي الشّعرية العربية، ويواصل ابن قتيبة تقصيه الاقتصاد الأدائي الكامن وراء الحذف، وإعجازيته في النص القرآني وشعريته، سواء فيه، أو في شعر الفحول من الشعراء: **"ومن ذلك: أن يأتي بالكلام مبنيّاً على أن له جواباً، فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب به. كقوله سبحانه: ﴿وَلو أنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بهِ الجِبالُ أوْ قُطِّعَتْ بهِ الأرْضُ أوْ كُلِّمَ بهِ المَوْتَى بَلْ للهِ الأمْرُ جَميعاً﴾[53] أراد: لكان هذا القرآن، فحذف. وكذلك قوله: ﴿ولولا فضْلُ اللهِ عليكم ورَحْمَتُهُ وأنَّ اللهَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾[54] أراد لعذبكم، فحذف. قال الشاعر:**

فأقْسِم لوْ شَيْ أتانا رسوله* سِواكَ؛ ولكنْ لمْ نَجِدْ لكَ مَدْفَعَا**

أي لرددناه."[55]

كما يقف ابن قتيبة على شعرية الغموض، الناتجة على الاختصار والإضمار، ويرى أن المعنى فيها قد يَشْكُلُ، ولا يُتَبَيَّنُ إلا بعد إعمال الفكر، لأنها حال قد يكون فيها المخاطب جاهلا بسياق الخطاب، يقول ابن قتيبة في هذا المقام: **"وهذا قول الفراء، وهو يبعد: لأن العرب إنما تحذف من الكلام ما يدل عليه ما يظهر؛ وليس في ظاهر هذا الكلام ـ على هذا التأويل ـ دليل على باطنه"**[56] كقوله تعالى: **﴿أفمَن زُيِّنَ له سُوءُ عملِهِ فرآهُ حَسَناً فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ويَهْدي من يَشَاءُ فلا تَذْهَبْ نفسُكَ عليهِمْ حَسَراتٍ﴾**[57] **"والمعنى: أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً، ذهبت نفسك حسرة عليه؟ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء."**[58] ويؤكد ابن قتيبة أن الكلام المشكل موجود في كلام العرب، وأنّ: **"... من تتبع هذا من كلام العرب وأشعارها وجده كثيراً: قال الشاعر:**

فلا تَدْفِنوني إنَّ دَفْنِي مُحَرَّمٌ * عليكم، ولكنْ خامِري أُمَّ عامر**

يريد: لا تدفنوني ولكن دعوني للتي يقال لها إذا صِيدَت: خامري أُمَّ عامر، يعني الضَّبُع، لتأكلني..."[59]

وإذا كان كلّ من الجاحظ، وأبي عبيدة، قد سعيا إلى إثبات إعجازية القرآن الفنية، وفي أحد جوانبها عن طريق الإيجاز، متتبعين في ذلك منهج القراءة بالمماثلة: "**فإن أبرز مراحل التحوّل من التبرير إلى المباهاة قد تمّت على يد ابن قتيبة الذي أظهر التطوع بتبصير المهاجمين بالسبب الذي من أجله كان تورطهم في الهجوم.."**[60]، ولما كان للإيجاز مواضعه وللإطناب مواضعه كذلك، قال عن الإيجاز بأنّه غير: "**محمود في كل موضع، ولا بمختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، ولو كان الإيجاز محمودا في كل الأحوال لجرده الله في القرآن، ولم يفعل الله ذلك. ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرّر تارة للإفهام.**"[61]

وهكذا، تتواصل الجهود النقدية، لدراسة هذه الظاهرة دراسة فنية في محاولة من النقاد الكشف عن أسرار الشّعرية الكامنة وراء وسائل الاقتصاد الأدائي في اللّغة الفنية، وكان قدامة من بين النقاد الأوائل السباقين لذلك، على الرغم من توجهه التأصيليّ والذي تجلى في شكل خروجه من البيان، إلى المفهوم الفني للّغة، وأدّت به عنايته بالاقتصاد الأدائي إلى وضع تعريف واضح لهذه الظاهرة، عبّر عنها بقوله: "**وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء لها أو لمحة تدلّ عليها كما في قول الشاعر:**

هاج ذا القلب تذكّر جمل*ما يهيج المتيّم المحزونا.**

فقد أشار بقوله (ما يهيج المتيم المحزونا) إلى معان كثيرة."[62]

واستنتج أنّ الشّعر الجيّد هو الشّعر المتخيّر ألفاظه، والمؤلف بينها لحظة عملية الاختيار ذاتها، قصد توظيف أكثر الدلالات والتي بإمكان الدوال أن توحي بها، أو تومئ إليها، وما توحي به في ذهن المتلقي.

أما ابن طباطبا فلم يخصص بابا كاملا لهذه الظاهرة الشّعرية في كتابه, ولكنّه أشار إليها في معرض حديثه عن الإيجاز، والاختصار، فأورد قول النابغة:

وإنك كالليل الذي هو مدركي * وإن خلت أن المنتأى عنك واسع.**

وعلّق عليه قائلا "**وإنما قال كالليل الذي هو مدركي لأن كلمة الليل جامعة لمعان كثيرة**"[63]، ولعل هذا ما أوحت به أحدث الدراسات المؤسسة للشّعرية الحديثة، ونستشف ذلك من كلام **شكلوفسكي** أحد مؤسسيها، والذي اعتبر الاقتصاد الأدائي وسيلة من وسائل اللّغة الشّعرية التي ألمح أرسطو إلى غرابتها، وروعتها، يقول: "**الشعر طريقة خاصة للتفكير؛ أو بمعنى أدق طريقة للتفكير في صور، طريقة تسمح بما يسمى (الاقتصاد في الجهد الذهني)، طريقة تذهب إلى الإحساس بالسهولة النسبية لعملية التفكير، ويتولّد الشعور الجمالي كردّ فعل لهذا الاقتصاد في الجهد الذهني**"[64].

الهوامش:

[1] فلوريان كولمان، اللغة والاقتصاد، تر.أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع. 263، 2000، ص-ص.265-278.

[2] جون كوين، تر: أحمد درويش، النظرية الشعرية(بناء لغة الشعر –اللغة العليا)، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ط4، 2000، ص-ص.272-284.

[3] Voir : SYLVIANE AGACINSKI : MIMESIS DES ARTICULATIONS. Flammarion ,1975, France.P :55-72.

[4] بوريس إيخنباوم، نظرية المنهج الشكلي، ضمن كتاب: نظرية المنهج الشكلي-نصوص الشكلانيين الرّوس، ص.71.

[5] المرجع نفسه، ص.71.

[6] ابن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تح. النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.1، 2000.، ج.1، ص.384.

[7] المصدر نفسه، ج.1، ص.383.

[8] نفسه، ج.1، ص.382.

[9] أبو هلال العسكري، الصناعتين، تح. مفيد قُمحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.2، 1989 الصناعتين، ص.194.

[10] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط.7، 1998.، ج.1، ص.108.

[11] الرّماني، أبو الحسن (386هـ)، النكت في إعجاز القرآن(ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح. محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط.2، 1968 ص.80.

[12] أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص.194.

[13] الجاحظ، البيان والتبيين، ج.1، ص-ص. 40-44، وكذا: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص.156،155،154.

[14] أرسطو طاليس، فن الشعر، تر. عبد الرحمن بدوي، ص-ص.61-64.

[15] الجاحظ، البيان والتبيين، ج.1، ص.83.

[16] ابن رشيق، العمدة، ج.1، ص-ص. 385-386.

[17] المصدر نفسه، ج.1، ص.382.

[18] بوريس إيخنباوم، نظرية المنهج الشكلي، ضمن كتاب: نظرية المنهج الشكلي-نصوص الشكلانيين الرّوس، ص.71.

[19] فلوريان كولمان، اللغة والاقتصاد، ص.274-275.

[20] جون كوين، النظرية الشعرية(بناء لغة الشعر –اللغة العليا)، ص.185.

[21] المرجع نفسه.

[22] هوراس، فنّ الشعر، تر. لويس عوض، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط.3، 1988، ص.112.

[23] الجاحظ، البيان والتبيين، ج.1، ص.155.

[24] هوراس، فنّ الشعر، ص.112.

[25] أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص.193.

[26] أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط.1، 1945، ص.11.

[27] رينيه ويليك، وأوستن وارين، نظرية الأدب، تر. محيي الدين صبحي، ص.181.

[28] محمد العبد، اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر، القاهرة، ط.1، 1989، ص.26.

[29] سورة الواقعة، الآية: 19.

[30] الجاحظ، الحيوان، ج.3، ص.86.

[31] أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تح : محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، دت،ج.1، ص.331،287،100، ج.2، ص.15.

[32] فندريس.ج، اللغة، تح. عبد الحميد الدواغلي، محمد القصاص، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1950، ص.188.

33 سورة آل عمران، الآية:191.

34 ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، شرحه ونشره: السيّد أحمد صقر، دت، دط، ص.286.

35 ميشال زكرياء، الألسنية (علم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط.11، 1983، ص.278.

36 سورة آل عمران، الآية: 106.

37 ابن عبيدة، مجاز القرآن، ج.1، ص- ص.100، 101.

38 المبرد، أبو العباس محمد بن زيد،البلاغة، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، ط2، 1985،ص. 61، 84.

39 المصدر نفسه.

40 سورة الأعراف، الآية: 199.

41 ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص- ص.4-5.

42 فندرس، اللغة، ص.256.

43 سورة الكهف، الآية:17.

44 ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص- ص. 9-10.

45 الرّماني، النكت في إعجاز القرآن، ص.72.

46 المصدر نفسه، ص- ص. 72-73.

47 ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص.11.

48 سورة يوسف، الآية: 82.

49 ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص.210.

50 محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية لصناعة الكتاب، 1984، ص.198.

51 ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص- ص.212-213.

52 فندرس، اللغة، ص.256.

53 سورة الرعد، الآية:31.

54 سورة النور، الآية:20.

55 ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص- ص. 214-215.

56 المصدر نفسه، ص.219.

57 سورة فاطر، الآية: 8.

58 ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص- ص. 218-219.

59 المصدر نفسه، ص.221.

60 عبد الحليم راضي، نظرية اللغة في النقد العربي، ص.465.

61 ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص.9.

62 قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص- ص.154-155.

63 ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، تح: عبد العزيزبن ناصر مانع، الرياض، 1985،ص. 38.

64 فيكتور شكلوفسكي، الفن باعتباره تكنيكا، تر. عباس تونسي، "مقال"، مجلة عيون المقالات، دار قرطبة للنشر، الدار البيضاء، ع.1، 1986، ص.111.